المبحث الأول

دور المرأة في التربية

إنّ الشريعة الإسلامية عظَّمت المرأة وكرَّمتها كما تقدَّم سابقاً ، ومن أجَلِّ المهام التي أناط الشارع عزّ وجلّ بها المرأة: تربية الأولاد ، ولا أعني بهـذا الكلام أنّ الرجل معفى من هـٰذه المهمّة ، وأنّ المسؤولية تقع على كاهل المرأة وحدها ، بل إنّ المسؤولية تقع على كاهل الرجل والمرأة ، ولكن مسؤوليتها في هـٰذا المضمار مسؤولية أكبر من مسؤولية الرجل ، وذلك لما هو معلوم من تفرُّغ الرجل إلى الكسب وتفرُّغ المرأة إلى حضانة أولادها ورعايتهم وتنشئتهم.

وأما السخفاء والدجاجلة الذين يقولون: غدت المرأة غير متفرِّغة للأولاد كالرجل تماماً! فنسألهم: وما هو الحل الذي ترونه مناسباً لتربية فلذات أكبادنا؟!

فلا يستطيعون أن يُجيبونا إلاّ بإيداع الأطفال لدى حاضنة ترعى شؤونهم! والجواب على ذلك من وجوه عدَّة:

□ـ إن استعانتك بحاضنة لتقوم برعاية الأطفال ، لن يقدّم الحنان والعطف والمحبّة والاهتمام الذي تُقدّمه الأم تجاه أبنائها ، فالحاضنة امرأة غربية وسوف ينعكس هـٰذا على الأطفال من الناحية السلوكيّة والعاطفيّة والنفسيّة انعكاساً سلبياً مدمّراً ، مما يؤدّي إلى انقطاع الروابط العاطفيّة بين الأم وبين أبنائها ، وبالتالي يكون مصير هـٰذه الأم كما هو مصير الأم الأوربيّة التي انتهجت هـٰذا النظام منهجاً ومسلكاً مُتّبعاً ، فقد هجرها أبناؤها ـ كما تقدَّم في بداية الكتاب ـ وشعر المجتمع الأوربي بخجل نتيجة لذلك فصنعوا عيداً للأم يُلزَم به الأبناء استحياءً لزيارة أمّهاتهم ولو لمرّة واحدة في السنة ، وإذا نظرت إلى دور

المسنّين والمسنّات فترى أنها تعجُّ بالأمّهات الخائبات اللواتي يطحنَّ تحت أضراسهنَّ المرارة والندم والخيبة ، وما عليهنَّ إلاَّ أن يوجّهنَ الشكر لهـذا النظام الاجتماعي الذي أدّى بهنَّ إلى هـٰذه النهاية الكئيبة .

□ـ إذا هدفت لاستغلال طاقة المرأة خارج المنزل وفرّغتها عن مهمّتها في التربية في رعاية أبنائها من أجل المساهمة في بناء المجتمع ، فإنك تكون من البلاهة بمكان ، بحيث إنّ الأم التي سوف تخرج لتقوم بعملٍ ما لا بدّ أن تضع امرأة أخرى مكانها لتربّي أبناءها ، فبذلك جمَّد المجتمع عدداً هائلاً من المربّيات بحجة خروج الأمّهات إلى العمل للمساهمة في بناء المجتمع ، وتكون النتيجة وخيمة وتعيسة .

فإذا افترضنا أننا أردنا الاستفادة من مليون امرأة مثلاً وهنَّ أمّهات للخروج للعمل ، فسوف نُجمِّد بالتالي مليون مربِّية لتجلس مع الأطفال ، فنكون كمن يضحك على نفسه! أما إذا أردت الاستعانة بمدارس الحضانة فلا يخفى على القاصي والداني أنها تتحوّل إلى مدجنة للدجاج وبؤرة لنقل الأمراض سواء منها الجسدية أو النفسية ، عدا عن التكاليف الباهظة التي ستتكلّفها الأسرة .

□ـ سوف تتخلّى الأمّهات اللواتي تَرَكْنَ تربية أولادهنَّ للمربّيات عن دورهنَّ في إنشاء أبنائهنَّ وتربيتهنَّ ، وسيُترك هـٰذا بطبيعة الحال لأخلاق المربّيات ، والأخلاق كما تعلم ـ ولا سيَّما في هـٰذه الأيام ـ عملة نادرة ، ومهما كانت المربِّية أخلاقيّة فلن تُخلِصَ في تهذيب هـٰذا الغلام وتربيته والحنو عليه وتوجيهه كإخلاص الأمّ قط .

□ـ سيغدو لك جيل من الأبناء لا يعرفون للأسرة معنى ولا للعاطفة الأبويّة والأموميَّة قيمة ، وسوف تجد جيلاً مليئاً بالإجرام والعقد النفسية والمشاكل المتنوّعة ، وستحصد الأمّهات النتائج الوخيمة ، ومن ثمَّ سيكون المجتمع هو الحاصد الأكبر في نهاية المطاف ، إذن فتخلّي المرأة عن دورها في التربية يُعتبر جريمة من الناحية العلمية وجريمة من الناحية الشرعية أيضاً ، وهـٰذا شيء ثابت لا إشكال فيه في علم التربية والسلوك ، أما المغالين الذين يسعون إلى تحطيم المجتمع بأسره وتحطيم المرأة بصفة خاصَّة فإنهم يُناقشون في هـٰذه البدهيّات

العلميّة التربويّة ، ولهؤلاء أهداف معروفة لا تخفى على كلِّ ذي عقل مُنصف .

والآن تعال معي لنتلمّس الآيات القرآنية والأحاديث النبويّة التي وردت في ذكر الأولاد؛ من أجل أن نستشفَّ من خلالها نماذج من التربية الإسلامية التي يجب أن نحتذي بها :

نماذج من ذكر الأولاد في القرآن الكريم :

ـ قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ [الأنعام : ١٥١] .

ـ وقوله تعالى : ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ [مريم : ١٢] .

ـ وقوله تعالى : ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ [يوسف : ٢١] .

ـ وقوله تعالى : ﴿ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ [الكهف : ١٠] .

ـ وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف : ١٣] .

ـ وقوله تعالى : ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ [مريم : ٧] .

ـ وقوله تعالى : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ [مريم : ٢٩] .

ـ وقوله تعالى : ﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ [الأنبياء : ٦٠] .

ـ وقوله تعالى : ﴿ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ [لقمان : ١٧ ـ ١٩] .

ـ وقوله تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات : ١٠١] .

ـ وقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وإليك نماذج من الأحاديث النبويّة:

ـ عن عبد الله بن أبي سلمة (ربيب رسول الله ﷺ)[١] قال: كنت غلاماً في حجر رسول الله ﷺ وكانت يدي تطيش في الصحفة[٢]، فقال لي عليه الصلاة والسلام: «يا غلام، سمّ الله، وكُلْ بيمينك، وكُلْ مما يليك» فما زالت تلك طعمتي[٣] بعد)[٤].

ـ (عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كلكم راعٍ ومسؤول عن رعيّته، فالإمام راعٍ وهو مسؤول عن رعيّته، والرجل في أهله راعٍ وهو مسؤول عن رعيَّته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيَّتها، والخادم في مال سيِّده راعٍ وهو مسؤول عن رعيَّته»)[٥].

ـ (وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدِّه قال: قال رسول الله ﷺ: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين، وفرِّقوا بينهم في المضاجع»)[٦].

ـ (عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «افتحوا على صبيانكم أول كلمة: لا إله إلا الله، ولقِّنوهم عند الموت: لا إله إلا الله»)[٧].

---

(١) ربيب رسول الله ﷺ: أي رُبّي في بيته وكان رضي الله عنه ابن أم سلمة رضي الله عنها.

(٢) تطيش: أي يأكل من الوعاء من كل مكان وضع فيه يده، من أمامه ومن أمام غيره، وعلى اليمين واليسار، والصحفة: هي الوعاء الذي يوضع فيه الطعام.

(٣) طعمتي: أي الطريقة التي آكل فيها الطعام.

(٤) صحيح البخاري: ج٤ ـ برقم ٥٠٦١.

(٥) صحيح البخاري: ج٢ ـ برقم ٢٢٧٨.

(٦) سنن أبي داود: ج١ ـ برقم ٤٩٥.

(٧) كنز العمال للهندي: ج١٦ ـ برقم ٤٥٣٣٢.

ـ (وقال رسول الله ﷺ: «ما نَحَلَ والد ولده نحلاً أفضل من أدب حسن»)[1].

ـ (عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قبّل عليه الصلاة والسلام الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالساً، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبّلت منهم أحداً، فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: من لا يَرحم لا يُرحَم»)[2].

ـ (عن أبي قتادة رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ كان يُصلّي وهو حامل أمامة بنت زينب بنت رسول الله ﷺ، ولأبي العاص بن الربيع، فإذا قام حملها، وإذا سجد وضعها)[3].

ـ (عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «كفى بالمرء إثماً أن يُضيِّع من يقوت»)[4].

ـ (عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا صدقة إلاَّ عن ظهر غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول»)[5].

ـ (عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدّقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك»)[6].

ـ (عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله يُحبُّ عبده المؤمن الفقير المتعفّف أبا العيال»)[7].

---

(١) مسند الإمام أحمد: ج٣ ـ برقم ٤١٢.
(٢) صحيح البخاري: ج٤ ـ برقم ٥٦٥١ ـ وصحيح مسلم: ج٤ ـ برقم ٢٣١٨.
(٣) صحيح مسلم: ج١ ـ برقم ٥٤٣.
(٤) سنن أبي داود: ج١ ـ برقم ١٦٩٢ ـ ورواه الحاكم: ج١ ـ برقم ٤١٥ وصححه.
(٥) مسند الإمام أحمد: ج٢ ـ برقم ٧١٥٥.
(٦) صحيح مسلم: ج٢ ـ برقم ٩٩٥.
(٧) سنن ابن ماجه: ج٢ ـ برقم ٤١٢١.

ـ (عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكرهوا البنات فإنهنَّ المؤنسات الغاليات»)[1].

ـ (عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له ثلاث أخوات ، أو ابنتان أو أختان ، فأحسن صحبتهنَّ واتّقى الله فيهنَّ فله الجنّة»)[2].

ـ (عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويُوقّر كبيرنا»)[3].

ـ (عن سهل بن معاذ الجهني ، عن أبيه أنَّ رسول الله ﷺ قال: من قرأ القرآن وعمل بما فيه أُلبس والداه تاجاً يوم القيامة ضوؤه أحسن من ضوء الشمس في بيوت الدنيا ، فما ظنكم بالذي عمل بهـذا؟)[4].

فمن خلال هـٰذه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية يتبيّن لك حرص الشريعة الإسلامية على تربية الأولاد ، وبطبيعة الحال وكما تقدَّم فمسؤولية المرأة في هـٰذا المجال أوسع وأعمق من مسؤولية الرجل ، مع العلم أنَّ كلاهما مسؤول ، وقد ورد وصايا لبعض الحكماء في توجيه الأولاد وتنشئتهم ، ومن ذلك:

ـ (قال لقمان الحكيم لابنه: يا بني ، زاحم العلماء بركبتيك ولا تجادلهم فيمقتوك ، وخذ من الدنيا بلاغك وأنفق ما زاد عن ذلك لآخرتك ، ولا ترفض الدنيا كلّ الرفض فتكون عيالاً (أي عالة على الآخرين) وصُم صوماً يكسر شهوتك ولا تصم صوماً يضرُّ بصلاتك ، فإنَّ الصلاة خير من الصوم ، وإياك ومجالسة السفيه ومخالطة ذا الوجهين)[5].

---

(١) مسند الإمام أحمد: ج٤ ـ ص: ١٥١ ، الطبراني في الكبير: ١٧/ ٨٥٦.
(٢) سنن الترمذي: ج٣ ـ برقم ١٩٧٧.
(٣) سنن الترمذي: ج٣ ـ برقم ١٩٨٤.
(٤) سنن أبي داود: ج١ ـ برقم ١٤٥٣.
(٥) إحياء علوم الدين: ج٤ ـ ص: ٥٨.

ـ (وقال خالد بن الوليد رضي الله عنه: أُمِرنا أن نعلّم أولادنا الرمي وقراءة القرآن)[1].

ـ (وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حقُّ الولد على أبيه: أن ينتقي أمّه، ويُحسن اسمه، ويُعلّمه القرآن)[2].

ـ (وقد ورد عن يزيد بن معاوية أنه قال: أرسل أبي معاوية إلى الأحنف بن قيس، فقال له: ما تقول في الأولاد؟ قال: يا أمير المؤمنين، هم ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا، ونحن لهم أرض ذليلة وسماء ظليلة، وبهم نصول على كلّ جليلة، فإن طلبوا فأعطهم، وإن غضبوا فأرضِهم، يمنحوك ودّهم، ويحفوك جهدهم، ولا تكن عليهم كفلاً فيملّون حياتك، ويُحبّوا وفاتك، ويكرهوا قربك، فقال معاوية رضي الله عنه: لله درُّك يا أحنف، لقد دخلت عليَّ وأنا مملوءٌ غضباً على يزيد)[3].

ـ وحُكي أن أبا يزيد البسطامي عندما كان طفلاً صغيراً حفظ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١ـ ٢] فسأل أباه: يا أبت، لمن يقول الله عزَّ وجلَّ هـٰذا؟ فأجابه أباه: يا بُني، إنما يقول ذلك لنبيِّه محمّد ﷺ، قال أبو يزيد: إذن يا أبت مالي أراك لا تصنع ما أمر به الله رسوله ﷺ؟! قال: يا بُني، إنما ذلك افتُرِضَ على رسول الله ﷺ فرضاً من دون الناس، فسكت عنه الغلام، ثمَّ حفظ الغلام قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ [المزمل: ٢٠] فقال أبو يزيد الطفل رحمة الله عليه: يا أبتي، إني أرى في قوله تعالى أناساً مؤمنين يقومون مع النبي عليه الصلاة والسلام في صلاة الليل فمن هم؟ قال: إنهم الصحابة يا بُني، قال: فلِمَ لا تصنع ما كان يصنع النبيُّ ﷺ وصحابته يا أبتي، أليس في ذلك خير؟ فكان الأب يقوم بعد ذلك قيام الليل، ونهض ليلة أبو يزيد البسطامي رحمة الله عليه

---

(١) كنز العمال: ١٦/ ٥٥٨.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد: ص: ٣٥٣، والحاكم في المستدرك: ج٤ ـ ص: ١٧٨.

(٣) البركة في فضل السعي والحركة: ص: ٩٧.

فوجد أباه يُصلّي ، فقال: يا أبتي ، علّمني كيف أتطهّر وأصلّي معك ، فقال: يا بُني ، ارقد فإنّك صغير ، قال أبو يزيد: يا أبتي ، إذا كان يوم يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم أأقول لربّي: إني قُلت لأبي كيف أتطهّر لأصلّي معك فقال لي: ارقد فإنك صغير بعد أتُحبُّ هـٰذا؟ قال الأب: لا والله يا بني لا أحبُّ هـٰذا ، فعلّمه وكان يُصلّي معه صلاة الليل[1].

ـ وأثناء جولات أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الليل مرَّ على أهل خيمة فسمع الأم تقول لابنتها: يا بُنيّة ، اخلطي الماء باللبن ، فقالت: ألم تعلمي يا أمّاه أنَّ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قد نهى عن ذلك ، فقالت: أي بُنيّة ، وأين عمر الآن؟ فقالت البُنيّة: والله إن كان عمر غائباً فربُّ عمر حاضرٌ ، والله لا أطيع أمير المؤمنين في الملأ وأعصيه في الخفاء ، فبكى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وزوَّج هـٰذه البنيَّة لابنه عاصم بن عمر رضي الله عنهما ، وكان من نسلهما عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه[2].

وإذا تساءلنا عن السبب الذي جعل هـٰذه البُنيّة تتكلّم بذلك المنطق الشريف وتعتنق تلك العقيدة الصلبة ، أو تساءلنا عن سبب تمسُّك أبي يزيد البسطامي الطفل بكتاب الله عزَّ وجلَّ ، وحرصه على قيام الليل مع أبيه مسترشدين في كل ذلك بما تقدَّم من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبويّة الشريفة تبيَّن لنا المنهج القويم الذي يجب أن يُتّبع لتحقيق هـٰذه الغاية الشريفة التي تُحقق الفلاح للفرد والمجتمع في الدنيا والآخرة على السواء.

* * *

(١) أنباء نجباء الأبناء: ص: ١٥٠ ـ ١٥١.
(٢) المرجع السابق.